هذا غيظ لكفارنا ومغيرة لأعدائنا وان فرايصهم لترتعد وان قوايمهم لتحور من ذلك وانا لنجد بذلك المظهر عليهم والذلة والصغار فيهم
واثر بوا في قلوبهم الرعب حين يرون مساجدنا محلاة بالذهب وسقوفها منقطة بقناديل الذهب الخبر وفيه ان عمر سئل عنه قلت
الخبر ذكره المؤرخون ومثله لاتقوم الحجة به ولم ار فيه الزيادة المتعلقة بتحلية المساجد وقد رأيت في بعض النسخ نسبة ذلك
للذهبي في تاريخ الاسلام واسقط لفظ وفي نسخة اخرى فليراجع ذلك من تاريخ الاسلام فان لم يكن فيه هذه الزيادة فالذي
يظهر لي ان بعض المتعصبين الحق هذه الاشيا في الروايات المتقدمة ليتم بها الاستدلال فان المسئلة وقع فيها تعصبات وكان
الجمال الكازروني انما اراد افادة اصل وضع القناديل وذكر ما يشعر بهذا الأمر فلما راى ذلك المتعصب ان الاستدلال لا يتم
الا بذلك الحقه ولم يشعر انه لو كان ذلك موجودا لم يكن فيه حجة لعدم اتصال السند الصحيح في ذلك ومن تأمل سيرة النبي صلى الله
عليه وسلم واحواله لم يخف عليه ان كل ذلك لم يكن يعجبه في حياته هذا الذي اعتقده والله اعلم الفصل السادس والعشرون في
الحريق الأول القديم المستولي على تلك الزخارف المحدثة بالحجرة الشريفة والمسجد وسقفهما وما اعيد من ذلك وما تجدد
من توسعة المسقف القبلي بزيادة الرواقين فيه وغير ذلك قال المؤرخون احترق المسجد النبوي ليلة الجمعة اول شهر رمضان
من سنة اربع وخمسين وستمايه في اول الليل ونقل ابو شامة ان ابتدا حرقه كان من زاوية الغربية من الشمال وسبب ذلك كما
ذكره الذهبي ان ابا بكر بن اوحد الفراش احد القوام بالمسجد الشريف دخل الى حاصل المسجد هناك ومعه نار ففعل عنها الى ان
علقت في بعض الالات التي كانت في الحاصل واعجزه طفيها ثم احترق الفراش المذكور والحاصل وجميع ما فيه وقد صنف القطب
القسطلاني في ذلك وفي النار المتقدم ذكرها في الفصل الثالث من الباب الثاني وهي نار الحجاز التي ظهرت بالمدينة الشريفة في ذلك
العام كتابا سماه عروة التوثيق في النار والحريق ذكر فيه بدايع من حكم الله تعالى في حدوث ذلك وقد كان القطب بمكة حين
وقع ذلك وقد نبه فيه على ما يوافق ما قدمناه عن المؤرخين فقال كتب الي الصادق في الخبر وشافهني من شاهد الأمر
ان السبب في حريق المسجد الشريف دخول احد قومة المسجد في المخزن الذي في الجانب الغربي من اخريات المسجد لاستخراج
قناديل لمناير المسجد فاستخرج منها ما احتاج اليه ثم ترك الضوء الذي كان في يده على قفص من اقفاص القناديل وفيه مشاق
فاشتعل فيه وبادر لأن يطفيه فغلب وعلق بحصر وبسط واقفاص وقصب كان في المخزن ثم تزايد الالتهاب وتضاعف
الى ان علا الى سقف المسجد انتهى وفي العبر للذهبي ان حرقه كان من مسرجة القوام قال المؤرخون ثم دبت النار في السقف
سرعة آخذة قبلة واعجلت الناس عن اطفائها بعد ان نزل امير المدينة فاجتمع معه غالب اهل المدينة فلم يقدروا على قطعها
وما كان الا اقل من القليل حتى استولى الحريق على جميع سقف المسجد الشريف واحترق جميعه حتى لم تبق خشبة واحدة قلت
لعل مرادهم لم تبق خشبة كاملة لما قدمناه من مشاهدة بقايا خشب كثير عند اخراج الهدم الذي كان بالحجرة قال القطب القسطلاني وتلف
جميع ما احتوى عليه المسجد الشريف من المنبر النبوي والابواب والخزاين والشبابيك والمقاصير والصناديق وما اشتملت عليه من
كتب وكسوة الحجرة وكان عليها احدى عشر ستارة ثم ذكر القطب حكما لذلك واسرارا لكون تلك الزخارف لم ترضه صلى الله عليه وسلم
ولكون القلوب لما لاحظت المساجد الثلاثة بعين التعظيم ولا يجوز في ذلك ان تنزل فوق قدرها بل لابدان يعتقدان حصنه
قهره تعالى وعظمته مستولية على الجميع فهو الواحد القهار فوقع الحريق في الكعبة وبيت المقدس قديما ثم وقع بهذا المسجد في هذا
الزمان عقب ظهور المعجزة العظيمة في ظهور نار الحجاز التي اخبر بها صلى الله عليه وسلم وحماية جيرانه منها لما التجوا اليه وانطفاها
عند الوصول الى الحرم كما سبق وربما خطر ببال العوام ان حبس النار عنهم ببركة الجوار موجب لحبسها عنهم في الآخرة فاقتضى الحال
التنبيه بذلك قلت ونظم الاقشهري ابياتا مضمونها ان تسليط النار كان على تلك الزخارف المنهي عنها وان ما كان حقا فبقي

وما كان

وما كان زورا فبالنار يحرق قال وانشدني الحافظ الصالح الشيخ ابراهيم بن محمد الكناني رئيس المؤذنين هو واخوه [وابوه] قال وجد
بعد الحريق في بعض جدارات المسجد بيتان هما لم يحترق حرم النبي لريبة يخشى عليه وما به من عار لكنه ايدي الروافض لامست
تلك الرسوم فطهرت بالنار قلت واوردها المجد بلفظ لم يحترق حرم النبي لحادث يخشى عليه ولا دهاه العار لكنما
ايدي الروافض لامست ذاك الجناب فطهرته النار واورد بعدهما بيتين آخرين هما قل للروافض بالمدينة ما لكم لقيادكم
للذم كل سفيه ما اصبح الحرم الشريف محرقا الا لسبكم الصحابة فيه قلت وهذا لأن الاستيلا على المسجد والمدينة كان
في ذلك الزمان للشيعة وكان القاضي والخطيب منهم حتى ذكر ابن فرحون ان اهل السنة لم يكن احد منهم يتظاهر بقراءة كتب اهل السنة
قال المؤرخون ولم يسلم سوى القبة التي احدثها الناصر لدين الله لحفظ ذخاير الحرم مثل المصحف الكريم العثماني وعدة صناديق كبار
متقدمة التاريخ صنعت يعني تلك الصناديق بعد الثلاثمائة وهي باقية الى اليوم يعني في زمانهم وذلك لكون القبة المذكورة بوسط
صحن المسجد وببركة المصحف الشريف العثماني وكانت عمارة القبة المذكورة على ما ذكره ابن فرحون سنة ست وسبعين
وخمسمائة قالوا وبقيت سواري المسجد قايمة كأنها جذوع النخل اذا هبت الرياح تتمايل وذاب الرصاص من بعض الاساطين
فسقطت ووقع السقف الذي كان على اعلى الحجرة على سقف بيت النبي صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعا في الحجرة الشريفة
وعلى القبور المقدسة وعبارة الذهبي وتبعه التقي السبكي فوقع بعض سقف الحجرة وكل ذلك قبل ان ينام الناس واصبحوا يوم الجمعة فعزلوا
موضعا للصلاة وكتب بذلك للخليفة المستعصم بالله ابي احمد عبد الله بن المستنصر بالله في شهر رمضان فوصلت الالات صحبة الصناع
مع ركب العراق في الموسم وابتدئ بالعمارة اول سنة خمس وخمسين وستمايه قال المطري ولما شرعوا في العمارة قصدوا ازالة
ما وقع من السقوف على القبور الشريفة فلم يجسر على ذلك واتفق رأي صاحب المدينة يومئذ وهو الامير منيف بن شيحة بن
هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني وراى اكابر اهل الحرم الشريف من المجاورين والخدام ان يطالع الامام المستعصم بذلك ليفعل ما يصل
به امره فارسلوا بذلك وانتظروا الجواب فلم يصل اليهم جواب لاشتغال الخليفة واهل دولته بازعاج التتار لهم واستيلائهم
على اعمال بغداد في تلك السنة فتركوا الردم على ما كان عليه ولم ينزل احد هناك ولم يتعرضوا اليه ولا حركوه وعبارة المجد
الشيرازي فتركوا الردم على ما كان عليه ولم يجسر احد على التعرض لهذه العظيمة التي دون مرامها تزل الاقدام ولا يتأتى من كل احد
بادي بدء الدخول فيه والاقدام قلت وقد كنت في تعجب عظيم من اهل ذلك الزمان في تركهم لذلك والفت كتابا سميته
الوفا بما يجب لحضرة المصطفى بينت فيه ان الواجب في سلوك الادب مع هذا النبي العظيم والقيام بما وجب على الأئمة من تعظيمه
وتعظيم قبره الشريف هو ازالة ذلك عنه وقمه من حجرته الشريفة حتى اتفقت العمارة الآتي بيانها ولم يكن تأليفي السابق سببا
في شيء من ذلك كما سيأتي بيانه حتى اني لم اطلع عليه متولي العمارة الا بعد هدمه لشيء من جدار الحجرة فلما نقبوا الجدار الظاهر ثلاثة
بين الجدارين في الفضا الذي خلف الحجرة ارى امهو لا من الهدم الذي ظهر ذلك الموضع فانه كما سيأتي كان فيه نحو القامة فعلمت ان
اهل ذلك الزمان لم يتركوه الا لعلمهم بان ازالته لا تتأتى الا باشتراك الحجرة فتوقفوا في ذلك لجراتهم الله تعالى خيرا وما كنت
اعتقد الا انه امر خفيف يتأتى قمه مع رعاية الادب فوجدته امرا مهولا معظمه ردم سقف المسجد الأعلى وما بين السقفين من
البنا الذي على رؤس السواري وغير ذلك ولذلك استخرت الله تعالى في عدم حضور ذلك عند اخراجه ووقفت بين يدي
النبي صلى الله عليه وسلم وسألته منه المدد في ان يوفقني الله تعالى لما يرضيه في ذلك فحفظني الله من حضور ذلك وقال المطري عقب
قوله ولم يتعرضوا اليه ولا حركوه انهم اعادوا سقفا فوقه على رؤس السواري التي حول الحجرة الشريفة فان الحائط الذي بناه عمر

بن عبد العزيز

Copyright © King Saud University